Black plate (90,1)

الرغبة والرهبة والخشوع

هذه ثلاث عبادات قلبية، والمقصود **بالرغبة**: الميل للوصول إلى المقصود.

وأما الرهبة: فإنها نوع من الخوف، وقد عرفها ابن القيم بأنها: «الإمعان في الهرب من المكروه»(١).

وأما الخشوع: فهو الخضوع والضراعة والهبوط كما قال الله ﷻ ﴿تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩]؛ أي: مطمئنة وهامدة وساكنة ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩]؛ فالمقصود بالخشوع الذل والتطامن، والخشوع الشرعي: هو الذل والتطامن لله ﷻ؛ فلذلك كان عبادة.

وقد جمع هذه المقامات الثلاث قول الله ﷻ عن جملة من أنبيائه من المصطفين الأخيار الذين ذكرهم الله ﷻ في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، هؤلاء هم المثل، هم النماذج، هم الأسوة الحسنة التي ينبغي للبشرية أن تنسج على منوالها؛ لا أن يُعظم بعض القاصرين الناقصين ويمجدون ويوصفون بالكملة، الكملة حقًّا من عباد الله هم أنبياء الله تعالى ومن سار على طريقهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠]؛ أي: أنهم لا يقتصرون على فعل الخيرات؛ بل فوق ذلك يسارعون فيها، وذلك أن الإيمان إذا حل في القلب كان كالوقود الباعث الذي يدفع صاحبه حثيثًا للوصول إلى

(١) مدارج السالكين (١/٥٠٨).

Black plate (91,1)

مقصوده؛ فلذا تجد أهل الإيمان يحفزهم باعث قوي، كما في قصة الرجل المؤمن فقال: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يس: ٢٠]، هذا السعي نابع من امتلائه بالإيمان، فتجده حيًّا يقظًا متحركًا بسبب هذه الجذوة التي تعتمل في داخله.

والمؤمن يكون في حال بين الخوف والرجاء، وبين الرغبة والرهبة، ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦]، هذه حقيقة الإيمان؛ فالخوف والرجاء والرغبة والرهبة ويضاف إليهما المحبة، هي أسباب صلاح القلب، ولا يجوز الاقتصار على أحدها وترك الباقي؛ فإن بعض من يدعون السلوك يختارون خصلة واحدة ويدعون ما سواها، فتجد مثلًا من يعبد الله بالخوف وحده، وتجد من يعبد الله بالرجاء وحده، وتجد من يعبد الله بالحب وحده، قال أهل العلم: «من عبد الله بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبد الله بالحب والخوف والرجاء فهو المؤمن الموحد»[(١)].

فهناك من يعبد الله بالخوف وحده: وهذا حال الحرورية الخوارج الذين لا يقرؤون إلا نصوص الوعيد ويحجرون رحمة الله تعالى.

وبإزائهم المرجئة: الذين يوسعون دائرة الرجاء والأماني، ويتعلقون بنصوص الرجاء، ويغضون الطرف عن نصوص الخوف.

وهناك طائفة ثالثة وهم: «غلاة الصوفية»، الذين يعبدون الله بالحب وحده، ويدعون ما سواه حتى إن قائلهم يقول: «ما عبدتك طلبًا لجنتك

(١) نسبه الغزالي لمكحول الدمشقي كما في إحياء علوم الدين (٤/ ١٦٦)، وعزاه شيخ الإسلام ابن القيم إلى بعض السلف بدون تعيينهم. ينظر: العبودية (ص١١٢)، وبدائع الفوائد (٣/ ١١).

Black plate (92,1)

ولا خوفًا من نارك إنما عبدتك محبة لك»، كما قال إمامهم وكبيرهم ابن عربي الطائي الأندلسي:

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

يا سبحان الله! إذا كان الخلص من عباد الله يرجون رحمة الله ويخافون عذابه فمن أنت حتى تقول: أنا تجاوزت هذا الحد وصرت لا أعبدك لا خوفًا ولا رجاءً، عبدتك بالحب وحده! هذه زندقة.

أما عبادة سيد المرسلين وإمام المتعبدين محمد بن عبد الله ﷺ فإنه يعبد الله بالحب، والخوف، والرجاء، وسائر أحوال القلوب.

قوله: (وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ الآية [البقرة: ١٥٠]).

تعريف الخشية والفرق بينها وبين الخوف

الخشية: نوع من الخوف لكنها أخص منه، وذلك أن الخشية خوف مقرون بعلم، فهي نابعة عن علم بالمخوف، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، فخشية العلماء لله تعالى مبنية على علمهم بمقتضى أسمائه وصفاته؛ فلذلك كانت خشية مبصرة، وهذا أعلى وأجل، والخوف من المقامات الإيمانية.

والفرق بين الخوف والخشية من جهتين:

الفرق الأول: أن الخشية أخص من الخوف؛ لأنها خوف مقرون بعلم.

الفرق الثاني: أن الخشية مبنية على عظم المخشي، والخوف مبني على ضعف في الخائف.

وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالخوف والخشية فقال

Black plate (93,1)

سبحانه: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ الآية [البقرة: ١٥٠]، فيجب صرف الخشية لله ﷻ وعدم صرفها لغيره، والمقصود بذلك خشية السر: أي: خشية العبادة.

قوله: (وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ الآية [الزمر: ٥٤]).

الإنابة: المقصود بها الرجوع والعود، استدل بقول الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤]؛ أي: أقبلوا على ربكم بالتوبة وراجعوه بالطاعة، وأسلموا له: أي: اخضعوا له.

وذلك أن الإسلام نوعان: إسلام كوني وإسلام شرعي:

أما الإسلام الكوني: فإنه يشمل جميع الخلائق كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨٣]، فهذا الإسلام لا يخرج عنه أحد، فما من ذرة من ذرات الكون إلا وهي خاضعة لرب العالمين مستسلمة منقادة له، لا يخرج عن ذلك أحد؛ حتى الكافر هو مسلم بهذا الاعتبار؛ لأنه منقاد خاضع لقدر الله الكوني، لا انفكاك له عما يُجريه الله تعالى عليه من أقدار، هذا هو النوع الأول وهو الإسلام الكوني.

أما الإسلام الشرعي: فهو الإسلام الطوعي الاختياري الذي يفعله المرء بمحض اختياره وسبق إصراره، فيمتثل الأوامر ويجتنب النواهي، وهذا هو إسلام المؤمنين، ويتفاوت أهل الإيمان في درجات هذا الإسلام:

فمنهم من يكمل استسلامه لله فلا يعصي الله تعالى في شيء، ومنهم من يثلم إسلامه بنوع معصية لكنه في الأعم الأغلب يكون من جملة المسلمين.

Black plate (94,1)

وإنما يُحمد صاحب الإسلام الشرعي؛ لأن الكوني ليس للإنسان فيه دور ولا أثر.

قوله: (وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]. وَفِي الْحَدِيثِ: «... وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»).

الاستعانة

الاستعانة: هي طلب العون، والمرء ضعيف بطبعه ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾ [النساء: ٢٨]، فلا غنى له عن مدد خارجي، وهو يحتاج إلى هذه المعونة في أموره الدينية والدنيوية؛ إذ لا قيام له بنفسه؛ بل لا بد له من مقيم؛ ولذلك كانت الاستعانة عبادة كما قال الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، حتى العبادة لا بد فيها من معونة الله ﷻ. وقد قيل:

إذا لم يكن عون من اللَّه للفتى ... فأول ما يجني عليه اجتهاده

وقد قال النبي ﷺ في وصيته الرقيقة لمعاذ بن جبل قال: «**يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**»، فَقَالَ: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»[1]، فلا غنى لك أيها المؤمن عن الاستعانة بمعبودك للوصول

(١) أخرجه أبو داود، رقم: (١٥٢٢)، والنسائي، رقم: (١٣٠٣)، وصححه ابن خزيمة في صحيحه، رقم: (٧٥١)، وابن حبان في صحيحه، رقم: (٢٠٢١)، والحاكم في المستدرك، رقم: (١٠١٠)، ووافقه الذهبي، وصححه النووي في رياض الصالحين، ت: الفحل (ص١٣٨)، رقم: (٣٨٤)، والألباني في صحيح أبي داود ـ الأم ـ (٥/ ٢٥٣)، رقم: (١٣٦٢)، والأرناؤوط في تحقيق صحيح ابن حبان.

Black plate (95,1)

إلى مقصودك، وقال النبي ﷺ أيضًا: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ...**»[(١)]؛ فالاستعانة عبادة؛ ولما كانت عبادة لم يجز صرفها لغير الله ﷻ، فمن استعان بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، فقد وقع في الشرك الأكبر.

أما من استعان بغير الله في أمر يقدر عليه ذلك الغير، فذلك ليس شركًا كما تقول لصاحبك مثلًا: أعني على حمل متاعي، أعني على ركوب دابتي، أعني على إتمام هذا البحث، أما من استعان بغير الله في أمر لا يقدر عليه إلا الله أو استعان بذلك الغير فيما لا يقدر عليه ذلك الغير؛ كأن يستعين بميت مقبور، أو يستعين بشخص غائب، فهذا هو الشرك الأعظم الذي يخرج صاحبه من الملة، وأما ما سوى ذلك فهو ما بين محمود ومذموم ومباح:

فالمحمود منه: التعاون على البر والتقوى كما قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، فهذه الاستعانة استعانة محمودة.

والمذموم منه: ما كان تعاونًا على معصية الله كأن يستعين بصاحبه على تهيئة أمر محرم، فهذا محرم لكن لا يبلغ مبلغ الشرك.

والمباح منه: ما جرت به عادة الناس من تخادمهم فيما بينهم.

قوله: (وَدَلِيلُ الاسْتِعَاذَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق: ١]، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس: ١]).

(١) أخرجه مسلم، رقم: (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.